

فيلسوف يدرك قيم الأمور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف إليه العالمون على اختلاف معارفهم ويبحث في أن يوفق توفيقاً حسناً بين الحياة الخاصة والحياة العامة. وكل هذا لا يفهم مغزاه شرقاً التعس الآن.

تأخي الغربيين

١٦

كل فكر ومذهب في الوجود نتيجة الدعوة إليه وتحجبه إلى النفوس. عرف الغربيون هذه القاعدة فحجروا عليها كثير من أعمالهم وكان من ثمرات الدعوات السياسية والدينية تأليف الوحدة السويسرية والألمانية والأميركية وتوحيد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرتستانتيية والفلسفية وقد قام في فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها رأوا أن بلادهم تنتفع كثيراً من تحسين علاقاتها مع أميركا فألفوا جمعية دعوها (جمعية فرنسا أميركا) مؤلفة من علماء وسياسيين وقواد واجتماعيين ومعلمين وفي رأسها المسيو جبرائيل هانوتو أحد أعضاء الخنجع العربي وصاحب التأليف الكثيرة في التاريخ والسياسة ووزير خارجية فرنسا الأسبق وقد انشأوا لبث هذه الدعوة مجنة شهرية باسم جمعيتهم تدعو إلى هذا الغرض استفتحها رئيس الجمعية بمقالة في الغرض الذي يرمون إليه وكتب في الخجلة الأسبوعية مقالة طويلة الذيل في هذا الشأن فرأيت أن أخص للمشاركة لباب هاتين المقالتين دلالة على ما يأتيه المغاربة من الأعمال النافعة لمستقبلهم لنعمي على أنفسنا نومنا عن النظر في مستقبلنا.

قال هانوتو: إن النجاح معقود بناصية من يعمل في الوقت اللازم ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ إلى أميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم إلى دعوة أمتنا لتعريفها بما نعرفها به. هبت علينا الزعازع السياسية والاقتصادية منذ ذاك الحين وإذا سكنت الآن وجب علينا أن نعمل عملاً يحمل في مطاويه أحسن الفوائد.

تبدلت الأرض غير الأرض في خمسين سنة حتى صبح أن نقول إن قارتي آسيا وأفريقية كأنهما اكتشفتا حديثاً فكثرت مواصلاتهما وجملت إليهما المدنية والحضارة وجرى تعلقهما واستعمارهما وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة. فقد غير دلسم بفتحته ترعة السويس شكل الأرض كما أن جول فري بموافقته على السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسماً كافياً من قسمة الأراضي الجديدة.

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب الغرب ينكرنا ويستغني عنا. فإن مسألة باناما المشؤومة التي جاءت بعد مسألة المكسيك قد أثرت في علاقاتنا مع أميركا الشمالية والجنوبية واستغرقت التدابير الأوروبية الكبرى التي اضطرتنا إلى مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية. وانحطت بحريتنا التجارية فضعت بضعفها أسبابنا في العمل واحتفظنا بأساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب أكثر منافعاً وأكثر مضاء وأقل مطالب ومشاعب.

نعم تقدمنا وتأثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا في قوتنا على عهد نابليون على حين كانت أميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدماً لا يوصف فقد كان سكان الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ — ٣٦ مليوناً أي ما يقرب من سكان فرنسا على التقريب فأصبحوا سنة ١٨٩٠ — ٦٣ مليوناً وما هم يتجاوزون اليوم الثمانين مليوناً. وفي كندا اليوم زهاء ٦

ملايين من السكان في الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليوناً وأصبحت أميركا الجنوبية ٤٥ مليوناً وكان فيها سنة ١٨٩٠ - ٣٥ مليوناً.

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فأصبحت اليوم زهاء ١٦ ملياراً وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨ : ٧٥٠٧٩ مليوناً فأصبحت سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ مليارين ونصفاً. ومجموع تجارة أميركا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب أكثر من أربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية.

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ما هناك من نفوس ١٦٠ مليوناً من البشر ومجموع التجارة أكثر من ٢٥ مليار فرنك وأحدثت أميركا حركة كبرى في العالم بدخولها مضمار الاتجار فأثرت في فرنسا تأثيراً غير قليل وكانت هذه إلى ذاك التاريخ قريبة لتجارها من انكلترا أي لها المقام الثاني في التجارة فأصبحت اليوم في الدرجة الرابعة بعد انكلترا والولايات المتحدة وألمانيا. أي أننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديماً فنحن اليوم نريد أن نعيد منزلتنا الأولى أو أن نغتنم الوقت الضائع فالمسألة ليست متعذرة ولكن تقتضي لها الإرادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة والعودة إلى تقاليدنا والانتفاع من أسبانيا.

أما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذي أحاط بطرفي البحرين اخططين فهي المهيمنة على أعمال العالم فإن عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد أن يجيء زمن تتدخل فيه في السياسة الأوروبية وأن الفرنسيين في كندا ليلغون مليونين ونصفاً ومثل هذا العدد من الفرنسيين منتشرة في جمهوريات الولايات المتحدة ولا سيما في الجنوب واللغة الفرنسية في

كويان وجزائر الانتيل يصبح عدد الفرنسيين ومن يتكلمون باللغة الفرنسية من الأمير كان ليس بقليل.

وان مالنا من الأيادي في أميركا ولا سيما وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسي باسم واشنطن الأميركي اللذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة وما وضعناه فيها من أموالنا وقمنا به في جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية والمشاريع الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بنسان الحال إلى أن نصل الحاضر بالغابر وإن لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع.

والناس مهتما تقلبت بهم الحال لا يزالون يذكرون لفرنسا بيض أياديها على المدينة وإذا نسوها فإنهم لا ينسون باريز التي تنشر أنوارها على العالم وإليها يحج الألوف من الأميركيين كل سنة لتتزه والارتياض والاستفادة وكثرت الرفاهية في ديارهم تدعوهم الدواعي إلى نزول باريز وما في أراضي فرنسا من المصايف والضواحي كالشاطئ اللازوردي (كوت دازور) فإن مجموع الأميركيين الذين يختلفون كل سنة إلى ديارنا لا يقلون عن مليون سائح. فعقد الصلات بين فرنسا وأميركا فيها كل ما نحتاجه من الأسباب القوية فإن كانت أميركا الشمالية تدعونا إليها بما فيها من القوة والعظمة فأمركا الجنوبية تنانينا إليها القرابة لأن عناصرها لاتينية وتربتها لاتينية فنحن كندا إلى مضيق ماجلان مارين بالملكين والجمهوريات الوسطى ترى الدم اللاتيني ممزوجاً في شرايين العناصر الجديدة وعلى أميركا الجنوبية يصح إطلاق المثل القائل (هذا دم لأماء).

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا في القارات والأقطار الأخرى فقد كانت جمعية (أفريقية الفرنسية) أعظم معاون للحكومة في أعمالها الاستعمارية وجمعية (آسيا الفرنسية)

أخذت على عاتقها مثل هذه المهنة و (جمعية مراکش) تعمل على نشر الأفكار الفرنسية في الغرب الأقصى فحن جمعيتنا هذه لا تأخذ إلى أميركا من معارفنا بقدر ما تأخذ عنها. فلا نرمي إلى الدخول فيها ونشر كنتاجنا بين أبنائها بل نود أن نعاونها ونخالفها نريد أن نتعلم عنها ونحن أبناء المدينة القديمة درساً في النشاط والمضاء فإن كان لمدينتنا القديمة كنائسها وبيعها فنلندن الحديثة معاملها ومصانعها فحن نقنع بامتصاص التاريخ أما هم فينشقون لوج المستقبل.

قام في واشنطن مثل عنا هذا يرمي إلى التقرب بين جميع العناصر في العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الأميركية أنشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الأخرى ومنحه المستر كارنجي مبلغاً جسيماً من المال وهو يفتح قاعات لإلقاء المحاضرات الاجتماع ومكاتب لأخذ المواد والعينات وخزانة كتب ومجلات كبرى وينشر مجلة للدعوة إلى هذا الغرض وذلك على صورة رسمية كما إن إسبانيا أنشأت مثل ذلك لتوفيق بين إسبانيا وأميركا وبمثل ذلك قامت البرتغال لتوفيق بينها وبين البرازيل. وفي ألمانيا اتحدت الكليات وأعمال الرجال على جلب أبناء الأميركان وتلقينهم التربية الجرمانية أما شعار جمعيتنا فهو أن نجلب فرنسا إلى نفوس أميركا ونعرفهم بها ونحب أميركا إلى نفوس الفرنسيين ونعرفهم بها.

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الأميركية التي أدمشت العالمين المدني والوحيي فإن مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرانسيسكو قد امتازت بغناها في زراعتها ومعادنها وصناعاتها وأعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان في الشبان والأربعين ولاية ومقاطعة كولومبيا والأرض الهندية وألاسكا وجزائر هاواي ومنها تتألف الولايات

المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة ١٤٦ فداناً (أكر) وثمنها ٢٠ مئياراً نصف مئيار دولار أي ١٠٦ مئيارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨ ٨ مئيارات دولار منها ٢٦٦٨ مئيون مكيل من الذرة و ٦٦٤ من الحنطة و ٨٠٧ من القرطمان و ٣١ من الجاودار و ١٦٦ مئيوناً من الشعير و ١٣ مئيون بالة قطن و ٧٠ مئيون طن من العلف و ٧١٨ مئيون ليرة من التبغ و ٢٧٨ مئيون مكيل من البطاطا و ١٣٥ مئيون ليرة من الصوف النقي.

وكانت مساحة الغابات الأهنية ١٦٨ مئيون فدان تغل كل سنة ٦٦٦ مئيون دولار د عنك الصيد في بحار أميركا وأثمارها وهو يباع بعشرات الملايين من الدولارات.

وبنغ سنة ١٩٠٥ مجموع ما في الولايات المتحدة من العامل ٢١٦ ألف معمل رأس مالها ١٢٦٨٦ مئيون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون أجوراً يبلغ مقدارها ٢٦١١ مئيون ريال وتبتاع بشمانية مئيارات ونصف من المواد الأولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر مئياراً. وفي سنة ١٩٠٨ أعطت الحكومة ١٦٣ ألف رخصة لإنشاء محال وأماكن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال.

وبنغ طول الخطوط الحديدية في هذه الولايات سنة ١٩٠٧: ٢٣٧ ألف ميل أي ٣٨١ كيلو متر لها ٥٥، ٣٨٨ قاطرة و ٢، ١٢٦، ٠٠ مركبة فيها من المستخدمين ١٦٧٢، ٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مئيون دولار مشاهرات وبنغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مئيوناً وثقل البضائع ١٧٩٦ مئيون طن وثقل الطنات الألفية (الألف ١٦٠٨ أمتار) ٢٣٦ مئياراً ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ مئيار دولار

وصافي ريعها أربعة في المئة. وفيها ما عدا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلاً من الخطوط الكهربائية.

وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ ١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة أميركا الخارجية ٣٣١٥ مليوناً.

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لو لم تكن الأخلاق أساس عظمها الاقتصادية وقد أخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم في أميركا كما عظمت منزلة رجال المال والأعمال والصناعة والتجارة.

وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الأدبية والفنية والعلمية وأصبحت بعض المدن مثل بوسطن التي هي مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل ميدان الآداب والعلوم. وأن كثيراً من الأسر ليزولون مدينة واشington عاصمة الولايات المتحدة في سياستها ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو. وليس للأميركان مثل فرنسا بلاداً يغترفون منها مادة علم ولا يجدون بلداً مثل فرنسا تتلقاهم بقبول حسن وتوفر الإرادات على حبهم. وفرنسا تعظم كذلك من نشاط رجالهم فكما أن طلابهم يجدون في بلادنا ما يتعلمونه كذلك أولادنا يسخدون من تعلمهم في كليات أميركا فينشأون بين شبان ^{سعر}ون منذ صغرهم باستقلال الفكر وأهم حامنون تبعه أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

لما وصل النقل إلى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئاً من حال الشرق. ذكرت حال العثمانيين والإيرانيين وأهم وإن كانوا من أمم مختلفة فجاءتهم الكبري وهي الإسلام لا

تقول مجنس ولا عنصر فنو كنا وكانوا على شيء من العلم الحقيقي أما كنا ندعو إلى إنشاء جمعية عثمانية إيرانية كما ينشئ هانوتو اليوم جمعية فرنسية أميركية. ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم لا تلبث أن تنفجر براكينها إذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكأون على عكازها لينافروا بين القلوب ويفرقوا بين أبناء الأب الواحد وهناك تدخل الدول ذوات الشأن والغايات في البلادين وينفخن في أبواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر. وإن العاقل ليربط على قلبه بيده ^{عند} ما يفكر في عاقبة سعي الجهلاء لإبقاء سوء التفاهم بين العثماني والعثماني فكيف يتبنى هذه الأمية البعيدة اليوم من ربط العثماني بالإيراني. فاللهم علمنا علماً نحسن به التفاهم حتى يتآخي الشرقيون كما يتآخي الغربيون.

سير العلم والاجتماع

عادات الكتاب

لكل كاتب عادة في كتابته هي الزم له من شعرات فصح لا يستطيع بدونها أن تفتح قريحته فإن ترستان بونارد يخضع ^{أحياناً} لكتاب قيص وقت الكتابة وقته ثم يكتب بدون أن يحذف حرفاً فإذا ما تشتت ذهنه يمسح قلمه بلحيته الجينة الطويلة وأديمون رويستان الشاعر يخضع نظارته عن عينه الواحدة. وراول بونشون لا يفتح عليه في محل القهوة كما يقال بل يأخذ شرباً منها ويكتفي أحياناً بنسخ الأشعار التي يعجبها (يخربشها) بقلم رصاص في دفتر له صغير. ويكتب موريس باريس بالحبر النفسي على ورق أزرق ذي حواشي من الوسط على عادة رجال السياسة وترى رسوم نسور من الذهب على منطلته التي يبلغ طولها ثلاثة أمتار. وهو مخطيء في استعمال الحبر النفسي لأن إيل بونارد قد عدل عن